الصوت الرومانسي والإصلاحي والثوري
في التجربة القصصية للشهيد أحمد رضا حوحو

د/ أم السعد حياة

جامعة الجزائر2

ممّا لا شك فيه أن الأدب كان دوما مصاحبا لمشاغل الإنسان، أداة طيعة في يده تساعده على تمثيل العالم بالطريقة التي يدركه بها، فتنوعت القوالب الأدبية واختلفت باختلاف العصور والمجتمعات وعرفت هذه القوالب تطورات عديدة أملتها حاجات الإنسان الخلاق لفن مقابل فن آخر حسب متطلبات العصر والبيئة والثقافة.

كثيرا ما يطرد اعتقاد خاطئ مفاده أن الأدب وظيفته محصورة في بنائه الجمالي الذي يختلف عن بنية اللغة العادية، باستعمال الخيال والإيهام بالواقع وسردية متطورة تبئر الحدث انطلاقا من وجهة نظر واحدة أو متعددة، ترسم بالكلمات عالما يضج بالشخصيات والأحداث لا تربطه بالواقع إلا المواد التي تشكل بنيته الأدبية.

والحقيقة أن للأدب قيمة ووظائف كثيرا ما تتخفى وراء البنية الجمالية، تسير لتعمق أفكارا تصور من خلالها وعيا أفضل بالحياة الإنسانية، منتقدة بذلك سلوكات قد تشوه صورة المجتمعات أو تفند مظاهر التطور والرقي التي تسمو بحياة الإنسان إلى الأفضل دائما، أو حتى مناقشة بعض الأخطاء التي يقع فيها الإنسان بنوع من الفكاهة والسخرية في سبيل بناء مجتمع أفضل، هذه بعض وظائف الأدب ينتقي من المجتمع محتواه الجمالي يربطه بشكل أدبي يسمو فيه بلغته الخاصة نحو ما يعتقد أنه الأفضل.

نقف في مقالتنا هذه لنقرأ تجربة أديب جزائري كتب القصة بأنواعها الطويلة والقصيرة، مثّل تجربة أدبية رائدة في هذا المجال بسموه نحو قراءة

الواقع المتأزم والبحث عن حلول للصراع الكوني الدائم بين الخير والشر، سأقرأ التجربة القصصية لـ **أحمد رضا حوحو** مع دوامة من التساؤلات:

*القاص شهيد من شهداء الثورة التحريرية الخالدة، التي ضحى فيها البواسل بالنفس والنفيس من أجل استرجاع حق اغتصبته آلة استعمارية مدمرة، مع استعمار الأرض عملت على مسخ الهوية والأصالة والدين الإسلامي، محاولة منها لطمس معالم الجزائري وفرنسة الجزائر خدمة لمطامحها. في ظل المستعمرة الغاشمة عاش حوحو وترعرع وتربى وكتب نصوصا قصصية قبل وأثناء الثورة الجزائرية إلى أن استشهد في مارس 1955، فما هي الصورة التي رسمها للمستعمر في نصوصه؟

*إذا كان أساس الكلام هو التبادل والتبادلية بتعبير بورديو، التي لا تقوم على فكرة التواصل فقط بل أيضا على فكرة من يحتكر الحقيقة فيكون محور العملية التبادلية هو **الهيمنة** وفرض نموذج ورؤيا للعالم، لا تعكس بالضرورة صورة الشخص بقدر ما تعكس **المجال الإيديولوجي** المنتمى إليه. فما هي الصورة التي رسمها حوحو لعالمه؟ وما هي المجالات المهيمنة في نصه؟

* يستعمل الأديب اللغة لنقل طريقة إدراكه ورؤيته للعالم، إضافة إلى العديد من العناصر التي تساعد على بناء محفل نصه، فقد يكون هو المتكفل بالسرد، كما قد يترك شخصيات معينة تنقل لنا اديولوجيته، سنستفيد هنا من الطرح التنظيري الذي قدمه ميخائيل باختين لنجيب عن سؤال مهم: ما هي الأصوات المتحاورة في نصوصه؟ هل أحسن حوحو سماع أصوات مجتمعه؟ ما هي الأصوات المهيمنة ولماذا؟

إذا سنعمل في هذا المقال على مقاربة جديدة لنصوص حوحو الأدبية، ليس بإثارة قضايا طرحت من قبل لكن بالنظر إلى أعماله من زاوية نقدية تبحث عما تقوله هذه النصوص في ظل ظروف كتابتها، لا دفاعا عن آراء الكاتب ولكن محاولة منا لتخليد ذكراه كأديب شهيد جابه بالكلمة واستشهد بالرصاص غدرا.

1*الموضوعات الكبرى في قصص رضا حوحو:

كانت التجربة القصصية لأحمد رضا حوحو نتيجة لمراحل عديدة مر بها الكاتب في سياقات كثيرة تفاعل في خضمها الوازع التعليمي والسياسي والعملي والعلمي، كلها تمفصلات صنعت تركيبة أدبية وإيديولوجية نقلت رؤيتة لعالم، هذا الاديب لم يكن يعرف الاستقرار. كان نصه الأدبي الأول سنة 1947 بعنوان "غادة أم القرى تجربة أدبية أولى أهداها *"إلى تلك التي تعيش محرومة من نعمة الحب..من نعمة العلم...من نعمة الحرية.... إلى تلك المخلوقة البائسة المهملة في هذا الوجود إلى* ***المرأة الجزائرية*** *أقدم هذه القصة تعزية وسلوى"* "(1).

إهداء كهذا ينقل لنا حجم الإحساس الذي يتملك كاتب هذه القصة وهو يعلم ما تعانيه المرأة الجزائرية والعربية بوجه عام من ضغوطات كونها امرأة فقط، وهو لن يفعل شيئا سوى تعزيتها ومواساتها ولن يغير من الوضع لكن ينقل صورتها كما هي، لهذا تَخيّر قولا لأندريه جيد يتماشى مع مقصدية كتابة هذا النص، فهو يحاول لا أن يدافع ولا أن يهاجم إنما غايته إتقان الرسم وإضاءة جيدة لمعالم صورة يجب أن تستبدل بأخرى لأنها فضيعة جدا في حق مجتمع دينه الإسلام.

إذا ما لاحظناه أن **موضوعة "المرأة"** مطروقة جدا ومتكررة في نصوصه مثل مجموعته القصصية "صاحبة الوحي" 1954 وقصص أخرى كالقبلة المشؤومة، خولة....، بالإضافة إلى **موضوعة "الصراع الاجتماعي"** القائمة على تجاذب وتنافر رهيب بين الخير والشر، وهو ما تجلى في صورة واضحة المعالم من خلال مقالاته القصصية "نماذج بشرية" 1955، وهناك موضوعة أخرى مهمة جدا نقلها وتمركزت خاصة في نصه "مع حمار الحكيم" 1953 في قالب تهكمي ساخر امتزجت فيه قضايا ساخنة مثل الصراع بين الشرق والغرب وهي **موضوعة سياسية.**

سنقدم في هذه المقالة دراسة لمختلف هذه الموضوعات الكبرى باعتبارها تساعدنا على رسم صورة للشهيد أحمد رضا حوحو من خلال كتاباته، نبدأ بصورة المرأة ولنقل **الصوت الرومانسي** القوي الظهور في أعماله، ونتساءل كيف رسمت المرأة بحضورها المتكرر صورة أحمد رضا حوحو؟ لماذا طغت هذه الصورة على أعماله القصصية؟ على ماذا تمركز حضورها البارز؟ ثم ننتقل إلى **الصوت الإصلاحي** الذي طبع أعماله القصصية وتركز خاصة في نصه "نماذج بشرية"، ثم نحط الرحال عند الصوت الخافت في نصوصه وهو **الصوت الثوري** ونبحث عن تعليلات وتفسيرات لأسباب خفوت هذا الصوت تحديدا.

إذا، سنركز في مقالنا على هذه الأصوات التي لاحظنا تناوبا في إدراجها ضمن البناء القصصي لنصوص أحمد رضا حوحو، وتناوب هذه الأصوات ساهم في رسم صورة عن كاتبها بلغته وحسه الفني والاجتماعي والوطني.

2* الصوت الرومانسي ورسم صُور عن المرأة:

كان الإهداء الذي قدم به حوحو قصته الأولى والمطولة **"غادة أم القرى"** يعكس بقوة إحساسه بالمرأة ووطأة التقاليد البالية على حجم هذا الكيان الضعيف المحصور بين أفكار تتهاوى به في خضم هيمنة ذكورية متجبرة، وكل النص يدور في فلك الصراع بين الحب والضغينة، الحب الذي قتل زكية والضغينة التي قتلت جميل، كلاهما كانا ضحيتين أضفيا على القصة جوا دراميا نقله لنا السارد العالم بكل شيء، برؤيتين للعالم خلفية ومصاحبة ما يعكس في النص الروائي وبشكل جدلي بنيات المجتمع، وإن كان الجو الدرامي طاغيا على النص إلا أن البعد الرومانسي غلف وسطر مشاعر البطلة زكية الفتاة الحالمة، التي رسمت في مخيلتها صورة جميلة لعلاقتها بحبيب ألمت به ظروف قاهرة فغادر عالمها، ففقدت عقلها وبعدها حياتها.

اسمعنا حوحو في نصه القصصي هذا دواخل البطلة، لم يستطع تركها تتحدث بصوتها عن مشاعرها بل كلف السارد العالم بكل الشيء مهمة التكفل

ونقل ما تحس وتشعر به، فالرقابة مفروضة حتى في النص القصصي الذي لا تتكلم فيه المرأة ولا تصرح بمشاعرها حتى يصيبها الخبل حين تصطدم بمأساة فقدانها لمن تحب سرا، لهذا تقيد حوحو في نصه بالحقيقة والواقع فنقل كل أحاسيس زكية بصوت السارد العالم بكل شيء:

"شعرت المرأة بوطأة الحجاب لأول مرة، وأحست بعبء التقليد ولاسيما الفتيات، ويا ويل الشقية منهن التي يطأ قلبها الحب، فإنها تعيش معذبة تعيسة، فليس لها أن تتحكم في قلبها فتحب من تشاء وتبغض من تشاء، بل لا يجوز لها مطلقا أن تحب، فالحب جريمة لا تغتفر، وفضيحة شنيعة"(2). ...*"هذه الفتاة التي كان هما الوحيد في هذه الحياة أن ترى نفسها يوما في أحضان من تحب فجميل هو حياتها الغالية وعالمها الذي تعيش والسعادة التي تنشدها..."(3)*

..."تلك الفتاة التي نشب عراك ما بين حبها المكبوت المكبل بالأغلال وعقلها المرهق بأعباء التقاليد الثقيلة، فقد اتخذا من قلبها وعقلها الفتي ميدانا لنضالها فحطماه وتحطما معه...(4)"..

وأمثلة كثيرة أخرى نلاحظ من خلالها سيطرة السارد على كل أحاسيس البطلة التي لم نسمع صوتها في النص إلا بعد أن أصابها الخبل، هنا انفطر قلب الأب عليها، فحاورها بعد أن طال امتناع شفائها، جلس ليحكي لها عن حبيبها وكأنه يعلم ضمنيا أن ابنته تصارع هواها وعشقها المكتوم فسعى جاهدا للحديث عنه علّ فلذة كبده تشفى:

"...وفي هذه الأثناء بدت زكية من بعيد وهي شاحبة اللون وقد سرى الهزال في جميع عضلاتها، فخاطبها وقلبه يفطر رحمة وحنانا:

-زكية تعالي يا ابنتي...وأخذ أبوها يحدثها عن جميل وهو لا يدري لماذا اختار هذا النوع من الحديث...-أتدرين أين هو جميل الآن؟

-قتلوه.أجابت الفتاة ...بصوت أشبه بالحشرجة...(5)".

هنا نسمع صوت الفتاة المأساة، أما شقها الرومانسي فلا يحبذ المجتمع سماعه ولم يسمعنا حوحو هذا الصوت أيضا لأنه ينقل ويرسم فقط صورة

من صور هذا المجتمع المتحجر ولا يريد التفنن في طمس الحقائق بل فتح لنا حوحو نافذة صور من خلالها هشاشة السلطة الذكورية أمام استكانة المرأة وضعفها، ولتكتمل الصورة بلور حوحو أيضا أسباب مأساة ولّدها مجتمع يضطهد الآخر مهما كان جنسه حين لا يتقبله، فسليمان المنتمي إلى طبقة ارستقراطية قديمة ذات الثراء والنفوذ (6) رفض تزويج ابنته لابن الشيخ أسعد المنتمي إلى طبقة نكرة "*لا حسب ولا نسب لهم وجدوا ميدانا للظهور على حساب الضحايا من الأبرياء الآمنين، لا يردعهم علم ولا يؤنبهم ضمير، فاغتنوا وفرضوا سيادتهم على بقية الطبقات فرضي بها صغار النفوس واستكانوا لها، ونفر منها ذوو الأحساب والأنساب ولم يعترفوا بها، فهذه الطبقة المرتجلة هي دائما محل مقت وسخرية الأسر العريقة وغيرها من كبار الناس*"(7) .

إذا هو صراع طبقي سار بالأحداث إلى تأزم فرض السجن على جميل المظلوم والهبل على زكية، والموت لكليهما، والعقاب للمتسبب في هذه المأساة الإنسانية وانتهت القصة هنا، فهل من تعدد صوتي في لحمتها؟

بالرغم من أن البناء السردي لهذا النص القصصي قام على وجود سارد عالم بكل شيء، تحكم في سير الأحداث وتوجيهها ونحا في كثير من الأحيان لإسماعنا أصوات الشخصيات سواء في حواراتها الداخلية أو الخارجية إلا أننا لمسنا أن إدراك العالم في هذا النص قام على وجه واحد طغى على هذا النص، الوجه الرومانسي المغلف ببعد درامي كبير.

كان حوحو في هذا النص وفيا لمبادئه ولم يستطع أن يفجر الثابت في الأذهان ولا تفكيك الأنظمة الإيديولوجية المنتمي إليها لهذا لم يفتح نهاية القصة على تأويلات عديدة بل أغلقها بموت البطلين، وبعقاب الشر، لا الخير نجا ولا الشر تمكر ونفذ بمكره، وبالتالي تصارع الإصلاح بالرومانسية في هذا النص فانطفأ الاثنان في جو درامي(8) لم يستطع تحمل أكثر من صوت واحد هو صوت المؤلف الذي سيبقى مترددا في كل النصوص القصصية الأخرى كما سنرى.

ففي *صاحبة الوحي* مثلا يحضر الحديث عن الملهمة التي تذكي قريحة الشاعر وينطفئ بغيابها لكننا لا نجدها ولا نجد صوتها ولكن تنقل لنا كل ظلالها الرومانسية بصوت شخصية صاحب صاحبة الوحي: *" وإذا نظرت إليك ملأت نفسك متعة لا تفوقها متعة..وإذا نظرت إليك اخذ نظرها الفاتن العذب ينساب إلى نفسك وقلبك وكل جوارحك....إنها أحلى من المال وأعذب من الحياة.....جمعتني بها الصدف فأحببتها حبا عنيفا طاغيا. حبا قدسيا طاهرا..."* (9)

كما نجد هذا قد تكرر في قصة "القبلة المشؤومة" جو مفعم بالرومانسية، موضوع المرأة اللعوب محوره لكننا لا نجد صوتها وكأن حوحو تواطأ مع المجتمع العربي بتغيبه لهذا الصوت في تلك الفترة، إلا أنه لم يستطع مقاومة تأثره بالقراءات الغربية التي كانت تلهمه هذا الحس الرومانسي المرهف الذي يعطي قيمة كبيرة للإنسان وأحاسيسه وعواطفه المملوءة بالحب: *"وكنت أشرح له ضرورة الحب في الحياة وأؤكد له أنه دافع التقدم ومبعث النبوغ، كما كنت افهمه انه لا دخل للحب في الفسق" (10)..*

3*الصوت الإصلاحي صور عن ألوان المجتمع:

كان حوحو قد تأثر في مشواره الأدبي بأدباء عالميين نهل منهم وتفتح على قراءاتهم فأنتج أدبا مليئا بحس رومانسي ساعده على رسم وتوضيح صورة ما تعانيه المرأة في المجتمعات العربية، هذا ما لمحناه جليا في "غادة أم القرى" وقصص أخرى، إلا أن تأثره بالوازع الإصلاحي وبمسار جمعية العلماء المسلمين أملى عليه الخوض في قضايا المجتمع والصراعات الدائرة فيه، لكن حوحو التزم بمبدأ الإصلاح فعالج قضايا تكاد تكون كونية أكثر من كونها تتعلق ببنية المجتمع الجزائري في تلك الحقبة الاستعمارية البشعة، فلم يخرج من الدائرة المغلقة التي حدد بها شخصيات تنقسم في أغلبها قسمين شخصية شريرة وأخرى خيرة تقع فريسة الشر.

لم يستطع حوحو تجاوز هذه الثنائية في مقالاته القصصية "نماذج بشرية" مبتعدا أشد البعد عن قضايا جد مهمة كانت في تلك الفترة على أوجها من بينها الاستعمار الفرنسي ووحشيته، فمقالاته القصصية دارت كل أحداثها من أجل تكريس فكرة صلاح المجتمع بصلاح الفرد، بغض النظر عن قضايا المستعمر والاستعمار وطمس الهوية واللغة والدين، مما جعل بعض النقاد مثل واسيني الأعرج يتهمون حوحو بانغلاق فكره وإبداعه ضمن التيار الإصلاحي الذي خنق قدراته الفنية التي حامت حول إيديولوجية واحدة خندقت القاص في مدارات منغلقة لم تستطع حتى تناول ظروف الاستعمار ووحشية المستعمر بعد انتفاضة 1945 أو ثورة 1954، يقول واسيني: *"نلاحظ أن هنالك تقصيرا كبيرا إذ أن ظلال هذه الانتفاضة الكبيرة لم تظهر لا من قريب ولا من بعيد، بل استطيع أن أقول أنها لم تهز شعرة واحدة من رأس الكاتب ولم تخضع تركيبته الفكرية لتلك الهزة العنيفة التي تنتج وعيا جديدا وقفزة نوعية"(11).*

وإن كنا لا نتفق مع رأي عنيف مثل هذا خاصة ما تعلق بالشعرة التي يظن واسيني الأعرج أنها لم تهز الكيان الإبداعي لحوحو وهذا حكم قاس جدا في حق شهيد عاش سياقا استعماريا بعيدا عما نعيشه والأكيد أن مضمرات كتاباته القصصية ستبدي حنقه على المستعمر خاصة في نصه "مع حمار الحكيم" و"عائشة" ولا ننسى أيضا أن حوحو أبدى موقفا صريحا من المستعمر حين كتب مقاله " الطرقية في خدمة الاستعمار" في 1938، أما حكم واسيني فانطلق من نص واحد هو "غادة أم القرى"، وإذا أسقطنا حكم واسيني على كثير من الأدباء والروائيين المعاصرين الذين يكتبون في ظل ثورات عربية عارمة، شوهت صورة وجغرافية المجتمع العربي، تمر عليهم دون أن يصرحوا بمواقفهم وكأنها لم تهز لا شعرة من كيانهم ولكن بنات أفكارهم مطيعة لولاءات أصحباها الساعين دوما للحفاظ على رأسمالهم الرمزي.

لا نخفي حقيقة أن حوحو في "نماذج بشرية" لازمته فكرة واحدة تربعت على عرش كل القصص التي جاءت في هذا المتن، فالهم الإصلاحي كان مهيمنا

لتفشي العديد من المظاهر اللاأخلاقية في المجتمع الجزائري (وهي مظاهر نتقاسمها مع كثير من الشعوب ولا تزال حتى عصرنا هذا متفشية وبخطورة أكبر)، وكأن حوحو كان متقينا أن قضيتنا ليست الاستقلال فقط لأنه كان بمثابة حتمية لا بد منها نتيجة الكفاح الباسل والمستمر لنيل الحرية، ولكن أي بنية اجتماعية سنواجهها بعد الظفر بالاستقلال؟

ربما هذا الذي كان يشغل حوحو وتماشى مع مساره الإصلاحي، فتبنى فكرة اختيار بعض الشخصيات النموذجية من الوسط الجزائري والعالمي ليعالج بها قضايا في غاية الأهمية، ولم ينطلق أبدا من سلطة بعينها أو سبب واضح، إنما كانت مقالاته القصصية نابعة من الفرد لهذا جاءت أغلب عناوين هذه القصص بأسماء شخصيات محددة أو صفات: الشيخ زروق، عائشة، العم نتيش، السكير، رجل من الناس، سيدي الحاج، الأستاذ، التلميذ...ولكونه متفتح على الثقافات الأخرى ساق في مقدمة كتابه قولا جميلا لـ "ابرويار": *"يجب أن نتكلم كلاما صادقا، وأن نفكر تفكيرا صائبا، دون أن نحاول جلب الآخرين إلى أذواقنا وعواطفنا، إن ذلك لهو العمل الجليل"* (12).

إذا غاية الكتاب هو لفت النظر إلى ما في طبقات المجتمع من اختلافات واختلالات تعكس ألوان الطباع وكوامن النفوس، وبعض الأحكام الجزافية التي قد نطلقها انطلاقا من مظاهر الإنسان قد تكون جلها خاطئة، اخترنا أن نبين هذا من خلال شخصية "الشيخ زرُّوق" وشخصية "عائشة" لمعاينة الصوت الإصلاحي المهيمن في بعض أعمال حوحو.

القارئ لقصة "الشيخ زروق" يلاحظ أن السارد العالم بكل الشيء تكفل بنقل الأحداث بعيدا عن التكلف في رسم صورة الشيخ الذي قدم لنا بوجهين، كإنسان صالح: الصلاة والذكر مع ترديد الآيات الكريمة، وهيبة في المنزل ووقار، ووجه آخر لا يعرفه به إلا أصحاب المهمات القذرة. استطاع حوحو في عرضه لهذا النموذج أن يسمعنا الصوتين معا في سياقين مختلفين، في المنزل مع الأهل يتصرف ويلبس لباس التقوى الذي يظهر من خلاله إنسانا سويا:

"تناول الشيخ طعام إفطاره على عجل وهو لا يزال يتمتم بالبقية الباقية من تسابيح ورد الصباح الذي اعتاد أن يتلوه يوميًا عقب صلاة الصبح... تناول عصاه ومسبحته، وما كاد يبارح غرفته حتى أدركته زوجته متذمرة:

ما هذا! ألا تستطيع حتى أن تتناول طعام إفطارك في راحة؟... أدائمًا أعمال الناس؟ لا أدري أية فائدة تجنيها من وراء هذه المتاعب كلها التي صدتك عن العناية بأهلك وأولادك؟!

وما كان من الشيخ إلا أن رمقها بنظرة حادة وأجابها والغضب بادٍ على قسمات وجهه:

أي شيء أستفيده من الناس؟! ... أتخالين زوجك مثل أولئك الغافلين الذين ألهتهم أوضار المادة الدنسة عن أعمالهم الربانية، أشغلتهم بطونهم عن الآخرة؟ ... أنا أخدِم الناس لوجه لله: أخدِم الحق الضائع وأحاول جهدي إرجاعه إلى نصابه ...ثم حوقل الشيخ واستغفر ربه واسترسل يقول: لا تُدْخِلِي على نفسي الرياء أيتها المرأة، اتقي لله، أتريدين أن تضيعي أجر عملي، وأن تبدلي ثوابي عقابًا بأحاديثك هذه؟"(13.)

وفي سياق آخر يلبس لبوس الشياطين ويرتكب شتى أنواع الرذائل دون أي وازع أخلاقي، يخدم الناس بالتزوير والتدليس مقابل أموال طائلة، يحضر في مثل هذا الموقف خطاب آخر ولكن دائما مغلف بالطابع الديني:

"-ولكن المبلغ كبير يا سيدي!

– أبدًا ... أبدًا ... (صرخ الشيخ) أنسيت ما ستجنيه من ذلك؟ فإنني سأُملكك مناب أختك الذي ورثته من أبيك بهذا المبلغ ...

– حسنًا يا سيدي قَبِلْتُ.

– أحسنت إذ قبلتَ، إذن أحضر لي النقود وافية، فأنا دائمًا أستوفي أجري مقدما، ثم لا تنسَ ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ".... استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان"

...-أقصد إذا ما كنت واثقًا من النجاح ...

– النجاح! هذا أمر ليس فيه أدنى شك ولا ريب، أنا لا أُقدم إلا على القضايا الناجحة. لم أعوِّد عملائي الفشل ولو مرة واحدة ... فأنا في هذه الأيام القريبة ملَّكت زوجًا من ثروة زوجته بعملية بسيطة، ثم طلقتها عليه، وهو اليوم ينعم بالمال والحرية، ولكنه دفع لي ضعف ما طلبت منك تقريبًا، والحديث بيننا طبعًا ... فأنا يا ابني أعمالي مُتقنة والحمد لله" ...(14)

قصة مثل هذه نجد رسالتها واضحة فالإمامة لا تعني دائما أن الإنسان صالح فتحت عمامته وجلبابه قد تتخفى كل الصور البشعة التي على كل إنسان أن يحتاط منها ولا يحكم بالمظاهر، هذه أفكار عبر عنها حوحو بصوت الشخصيات المختارة والسارد العالم بكل شيء، كان صوت الإصلاح يرن وهو في حقيقته صوت صاحبه ورؤيته للعالم، وإن كان حوحو قد ترك الشيخ يتكلم في القصة إلا أنه حرم "عائشة" من هذا الحديث وكلف ساردا عالما بكل تفاصيل القصة المرور على حياة هذه الإنسانة الجزائرية التي ضاعت في متاهات الحياة ثم عادت إلى رشادها بعد أن عانقت الأفكار الوطنية لتتحرر من رذائلها كما سيتحرر الوطن من الاستعمار(15).

حتى وإن كانت هذه المقالات القصصية ذات طابع إصلاحي محض فهذا لا ينقص من قيمتها كون الحس الفني يغلفها بما يوافق سياق وظروف كتابتها، وليس لنا أن نحكم على درجة إبداعيتها من منطلقنا لأن أسلوبها يتوافق مع ظرفية الكتابة الإصلاحية وشروطها، كما أن القاص برع في صياغة الحوارات، ولمس قضايا مهمة في واقعنا بعين ثاقبة، حتى وإن لم يقدم حلولا صريحة وواضحة فقد وضع اليد على الجرح بجرأة فنية، فمن كان قادرا على الحديث في تلك الفترة عن مشاعر المرأة، أو صورة بعض المثقفين المتخلفين اللاهثين وراء الألقاب والرتب، أو حتى الحديث عن الشيوخ اللابسين لباس الدين وهو منهم براء أو الحديث عن عفاف مومس تائبة، وكثيرة هي الصور التي أرادها أن تخلخل بعض الأنماط والأحكام الجاهزة حول البشر. ومن دائرة داخلة في نقد

المجتمع ننتقل إلى صوت أخر هو الصوت الثوري الذي لاحظنا حضوره في نصه " مع حمار الحكيم" المليء بالسخرية.

4*الصوت الثوري الخافت والمضمر:

اختار أحمد رضا حوحو أن ينوع في إنتاجه الإبداعي وفق تأثراته المختلفة المتشربة من المنابع الغربية والعربية، لهذا نجده أعجب إعجابا شديدا بـ "حماريات الحكيم" النص الساخر الذي انتقد به توفيق الحكيم الواقع الاجتماعي والسياسي في مصر، ولعل كتابة حوحو لنصه "مع حمار الحكيم"(16) المشبع بالتهكم والسخرية باعتبارها استعارة كبيرة تعطي للخطاب أوجها عديدة، حتى وإن كان وجهها البارز هو نشر الفكاهة والمرح، إلا أن لها وجها آخرا فكريا يرمي إلى نقد وضع أو سلطة ما، لا يمكن مواجهتها بالأقوال المباشرة، فميزة النص الساخر عموما أنه محاولة لكسر النظام أو المقدس بإضفاء طابع فكاهي مليء بالمسكوت عنه والمضمر والتعدد الصوتي عن طريق نقل خطابات الآخرين وتشويهها مع تغيير سياقاتها ونبراتها.

لهذا نجد باختين وهو يحاول أن يبحث عن جذور الرواية الغربية للوصول إلى بنائها الأسلوبي القائم على الحوارية والتعدد الصوتي كما وجده عند دوستويفسكي، يعود إلى الحوار السقراطي، ثم الكوميديا وبعدها المنيبية الهيلينية ليقف بعدها عند الكرنفال في العصور الوسطى باعتباره "قوة تعبيرية مميزة خلقت تواصلها ورأيها في العالم بطريقتها الخاصة، طريقة إيحائية رمزية حاول الكثيرون نقلها إلى لغة الكلام، رغم تعذر هذه الترجمة، **والأدب** كان من بين الترجمات التي نقلت هذه القوة المعبرة"(17).

تطرق باختين في كتابه "أعمال فرانسوا رابليه..." إلى مختلف تطورات الكرنفال الذي لم يكن بمثابة حفل أو مهرجان شعبي فقط، بل كان بمثابة **رؤية جديدة للعالم**، نظرة تخلو من الخوف وناقدة للأوضاع، ومن جهة أخرى نظرة إيجابية وليست عدمية، لأن الكرنفال استطاع أن يجد **الأساسيات المادية لهذا العالم** وهي: الممكن le devenir، والتغيير le changement،

والقوة، وهم بمثابة الثلاثي السرمدي للجديد، المعبر عن لا أخلاقية الشعب. le triomphe éternel du nouveau, l'immoralité du peuple وهذا ما نسمعه من قولنا **كرنفال العالم**. إذا الطابع الساخر رؤية جديدة للعالم تحمل معنى عميقا في مضمر ما تصرح به، تحاول دائما أن تبني عالما آخر مانحة ترتيبا جديدا للحياة، فالساخر يجعلنا نقتحم حدود الوحدة وما هو غير مناقش، يفضح كذب العالم الموجود(18)

ولكن علينا أن نشير إلى أن الخطاب الساخر يتسرب في المحكي الأدبي بطرق عديدة تتجلى في التعدد الصوتي والخطابات المنقولة وفي الثروة اللغوية التي تغلف الخطاب الهزلي، وفي التلاعب بالسياقات والنبرات، فطريقة تمثيل الخطاب الساخر للواقع يختلف حسب المقصديات والسياقات التي يرد فيها الخطاب.

من خلال قراءتنا لنص "مع حمار الحكيم" لحوحو الذي كتبه في 1953 لاحظنا أن البعد الساخر الأول الذي يحيل إليه النص يكمن في أن الحوار قائم بين إنسان عاقل وحيوان يعتقد أنه الأكثر غباء في الحيوانات، وحوحو هنا تأثر بتوفيق الحكيم الذي تأثر هو أيضا بالثقافات الغربية التي جعلت لهذا الحيوان حضورا في الأعمال الأدبية مثل حمار أبوليوس، أو "أنا وحماري" لـ"خيمينياز خوان رامون"..، إلى أن قراءتنا للحمار الذهبي لأبوليوس تبين أن هذا الحمار كان في الأصل إنسانا، تحوله إلى حمار جعله ينظر إلى العالم بطريقة أخرى، وإن صح التعبير اختار الكاتب الحمار ليفضح أمراض المجتمع والسلطة ولكن بصوت الحمار دائما ربما كي لا يتحمل مسؤولية ما يقوله الحمار، الشيء نفسه نجده في "حماريات الحكيم"(18) فالحمار هو من يتكفل بفضح الأوضاع السياسية ونقد المجتمع، وكل الأسئلة الجريئة تأتي على لسان الحمار تملصا من المسؤولية ولإضفاء أكبر قدر من السخرية في شكل قناع وفي شكل ما يسميه باختين الرؤية الفضائية الخارجية L'Exotopie.

بالنسبة لحوحو الأمر يختلف تماما لأن حمار الحكيم أصبح مع حوحو يثير في كثير من الأحيان (نستثني بعض الحوارات مثل نص "فلسفة الحمار) الأسئلة بطريقة ساخرة ولكن مباشرة مباشرة، ويتكفل حوحو الإجابة عنها متحملا مسؤولية ما يقول لاغيا في أغلب الحالات الطابع الساخر الذي من المفروض أن يكون أساس الحوار كي لا تقدم الأفكار ورؤية العالم بطريقة مباشرة، وللتوضيح نأخذ محاورته لحماره في نصه " نحن والغرب"، أين يعرض حوحو أفكاره حول طريقة كتابة الأخر عن الشرق، وفي ثنايا الحوار يكشف عن سلبيات الاستعمار، لأن الكاتب الغربي كان قد ادعى أنه يكتب عن الشرق ليكشف للغربيين عن محاسن الشرقيين، والأفضل حسب حوحو أن يكتب الغربي ليكشف عن مساوئ الغربيين وعن بشاعة المستعمر ("وأين هذا التساوي وانتم تنظرون إلينا كشعب منحط....أتنكر أن للاستعمار الغربي أعمالا فضيعة في البلاد والشعوب المستعمرة.....أولم تكن دعوة هذا الاستعمار أنه يقوم برسالة تمدينية..."(19))، ولكن الكاتب الغربي اعتبر هذا خروجا عن الموضوع لأنه لم يستطع مواجهة الحقيقة وانصرف. ليتدخل الحمار محاولا إنصاف بعض الغربيين، مما جعل الكاتب يضعهم مع بقية البشر الذين يصيبون ويخطئون، ليحول الحمار مجرى الحوار مسائلا الكاتب عما لا يعجبه في كتابات الغربيين متجاوزا الحديث عن قضايا الاستعمار، ليدخل الحمار في مسألة إنصاف بعض الغربيين الذين يقفون دوما مع الحقيقة إخلاصا لأقلامهم التواقة للعدالة.

نلمس في هذا النص تجاذبا بين صوتين:

- صوت يحاولة تجريم الآخر(الغربي) كونه لا يقف أمام الشرق إلا باعتباره خزانا لأسرار غريبة غرابة منطقه وتربيته وأصله المتوحش الذي يفرض وجود متحكم أسمى يدير شؤونه هو الغربي المستعمر.

-وصوت منصف لبعض الغربيين الواقفين أمام الحق والحقيقة الفاضحين لصورة الغربي في تعامله مع الشرق. ولكن لماذا لم يستطع حوحو أن

يمتلك جرأة أكبر وجعل صوت واحد مناهض للاستعمار خاصة وأنه كتب نصه في سياق بدأ يمهد لثورة عارمة ضد المستعمر؟

ربما لفهم هذه المسألة علينا التركيز على المحيط الخطابي للمتكلم كونه كاتب معروف يكتب في جريدة لها صدى وسط الجزائريين في تلك الفترة كما أن الإدارة الفرنسية كانت يقظة لكل المحاولات التي تطمح للتحريض على الثورة، فالإفصاح عن النوايا قد يودي به إلى الهلاك لهذا يقول في أكثر من موضع في نصه: "*ما أكثر ما نحب الحقيقة، وما أعجزنا عن التصريح بها*"(20) . *وأيضا بصوت الحمار: "لو لأطلقت لي العنان ولم تقيدني بخوفك وجبنك رأيت مني العجائب..."*(21) . *وبصوته: "اجعل نصيب عينيك يا صاحبي فلسفتنا نحن البشر"ليس كل ما يُعلم يقال"* (22).

لهذا لم نلتق في كتابات حوحو بتصريح مباشر مناهض للاستعمار مثل ما جاء في حواره الساخر مع الحمار، لهذا اعتبرنا أن **الصوت الثوري خافت** جدا في نصوصه القصصية ولم يستطع نقد الآلة الاستعمارية إلا بمحاورته واستنطاقه لكاتب مستشرق جعل الشرق موضوعا للدراسة دون الإشارة إلى ما يعانيه الكاتب والشرق برمته في تلك الأثناء من ويلات المستعمر المتخفي وراء شعارات الحرية والعدالة والمساواة التي تصدع في مجتمعاتهم فقط، أما مع الشرق فكل الأدوات التدميرية متاحة.

إذا السياق السياسي برمته حتم على الكاتب هذا التردد في الإدلاء بمقاصده، ولكن ما نعيبه على حوحو هو تكفله بالخطاب المناهض للاستعمار، لماذا لم يترك الحمار بسخريته اللاذعة يلعب دور المتكلف بنقل نوايا الكاتب ويساعده بالتالي على التخلص من الرقابة، ربما هذا ما جعل نص حوحو يفقد نقده اللاذع للسياسة والمجتمع.

في ختام هذا المقال الذي لا ندعي فيه أننا ألممنا بكل ما في تجربة حوحو القصصية من مكونات، ولكننا حاولنا إنصاف الكاتب لجرأته على نقل رؤيته لعالمه كما هو، موظفا ثلاثة أصوات هيمن فيهما **الصوت الإصلاحي**، باعتباره

مجالا كانت له وظيفته وقيمته في تلك الفترة، كما أنه يتماشى مع الاستعدادات النفسية والاجتماعية للكاتب، و**الصوت الرومانسي** برز لتفتحه على ثقافة الآخر الشرقي والغربي مما جعلنا نلمس ذلك التنويع الأدبي والفكري الذي شح عند كثير من الأدباء الجزائريين في فترة الاستعمار الغاشم، أما **الصوت الثوري** فخفت لأسباب سياسية وقهرية أملتها الظروف المحيطة بالكاتب. ولعل دراسات أخرى بمناهج إجرائية مختلفة تستطيع أن تقدم قراءة جديدة لهذه التجربة التي تبقى مفتوحة بوجود النصوص.

هوامش:

1أحمد رضا حوحو، غادة أم القرى وقصص أخرى، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ص48.

2المرجع نفسه ص.18

3نفسه ص.42

4نفسه ص.49

5نفسه ص.*58*

6نفسه ص.23

7نفسه ص.29

8 يقول باختين:الدراما بحكم طبيعتها غريبة عن تعددية الأصوات، بإمكان الدراما أن تكون متعددة المناهج ولكنها لن تستطيع أن تكون متعددة العوالم إنها تسمح فقط بنظام واحد للإدراك لا بعدد من النظم" شعرية دوستويفسكي، تر/نصيف التكريتي، دار توبقال، المغرب ص.50

9 صاحبة الوحي ص72 و 73 و75. ضمن غادة أم القرى وقصص أخرى.

10القبلة المشؤومة ص80. ضمن غادة أم القرى وقصص أخرى

11 واسيني الأعرج مقدمة لغادة أم القرى وقصص أخرى ص.18

12 أحمد رضا حوحو، نماذج بشرية، مؤسسة الهنداوي، مصر 2013، ص.8

13 المرجع نفسه ص.12

14 نفسه ص.13

15 انظر قصة عائشة ضمن نماذج بشرية : * يلخص السارد حياة الضياع: "*هامت الفتاة على وجهها في هذه المدينة المترامية الأطراف وكانت ذئاب البشرية لها بالمرصاد تتعقب خطاها، فاصطادوها في رمشة عين ودفعوا بها إلى طريق الغواية، فاحترفتها وقد وجدت مثيلاتها في بؤرتها يبعن أجسادهن مقابل لقمة من الخبز ..."ص16*

وهذه حياة الصلاح "...اشتهرت عائشة بأفكارها الوطنية وسخر منها الناس فزادها ذلك إصرارًا وعنادًا وتمسكًا بالفكرة، وحاولت مرارًا أن تشارك بدريهماتها القليلة في مساعدة هذه الفكرة التي تعرف عنها أنها

ترمي إلى الوطنية والتحرير. والتحرير في فهمها هو خروجها من هذا الماخور العفن إلى عالم رحب تجد فيه لقمة عيشها دون الاضطرار إلى بيع جسدها". ص17

16 أحمد رضا حوحو: نصوص من مع حمار الحكيم، ضمن البخلاء وبائعة الورود وقصص أخرى، دار القصبة للنشر، الجزائر،2012، ص.197

17- ميخائيل باختين: شعرية دوستويفسكي، ترجمة.. ص178

18 Mikhaïl Bakhtine : L'œuvre de François Râblais et la culture au moyen âge et sous la renaissance: Traduction : André Robel; Edition Gallimard : 1970 p/273.

18- انظر: توفيق الحكيم: حماريات الحكيم، موفم للنشر، الجزائر، .2007

19 أحمد رضا حوحو: نصوص من مع حمار الحكيم .ص.208

20المرجع نفسه ص.231

21نفسه ص.232

22نفسه ص232